



معرف الكائن الرقمي للمقال: 10.54239 / 2319-021-002-011 (DOI)

ملامح "الدولة" في إيالة الجزائر من خلال المصطلحات Features of the "state" in the Regency of Algiers

د. بعارسية صباح*

جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة/ الجزائر

s.bearcia@univ-dbkkm.dz

تاريخ الإرسال: 2022/07/26 تاريخ المراجعة: 2022/08/15 تاريخ القبول: 2022/11/06

الملخص

كان الشعور السائد لدى أغلب الجزائريين، مع بداية القرن 19م، العداء ضد الحكم العثماني "التركي"، وإحساس بظلم كبير أدى إلى حالة من الاحتقان ثم العصيان والتمرد ضد الحكام العثمانيين. هل كان هذا الوضع يسمح بظهور دولة وطنية؟ سنحاول في هذه الورقة العلمية الإجابة على سؤال قديم حديث لدى المؤرخين الجزائريين والفرنسيين، وهو هل كانت الجزائر خلال الفترة الحديثة دولة بالمفهوم الحالي (دولة وطنية)؟ على اعتبار توفرها على جيش بري وأسطول بحري وذات عَلم و"برلمان" (الديوان) وعملة وعاصمة، كان لها تقاليدها العرفية والدبلوماسية حسب القانون الدولي المعمول به آنذاك. وكان حكامها يبرمون المعاهدات، وكان في عاصمتها قناصل لدول غربية. وقد اتبعنا منهج المقابلة بين الآراء والموازنة بين الرؤى المختلفة. والنتيجة التي توصلنا إليها هي أن الجزائر كانت دولة موطنية، لأن دراسة المصطلح تخضع لمنطق زمني/تزامني، أي لنخوض في تحديد كل مفهوم أو مصطلح بشكل منفصل، يجب البحث عن المصطلحات الدالة في سياق زمني معين، أو في إطار تطورها التاريخي على مر القرون.

* د. بعارسية صباح، جامعة خميس مليانة، الجزائر



الكلمات المفتاحية: دولة وطنية؛ مصطلح؛ موطن؛ سيادة؛ كتابات فرنسية؛ سلطة؛ الجزائريون؛ الكتابات التاريخية.

Abstract :

The prevailing feeling among most Algerians, at the beginning of the 19th century, was hostility against the "Turkish" rule, and a sense of great injustice that led to a state of resentment and then rebellion against the Ottoman rulers. Was this situation allowing the emergence of a national state? We will try to answer the question among Algerian and French historians, which is, was Algeria during the Ottoman era a state in the current sense (national state)? Given that it had a land army, a navy, a flag, a "parliament" (Diwan), a currency and a capital... We have followed the approach of Opposition between opinions, and balancing different visions. And the conclusion we reached is that Algeria was a homeland (state), because the study of the term is to delve into the definition of each concept or term separately, because the study of the term is subject to chronologic/synchronous logic. The indicative terms must be searched in a specific temporal context, or in the context of its historical development over the centuries.

Keywords : National State; Term; Home; Suzerainty; French writings; Authority; Algerians; Historical writings.

-مقدمة:

إن ما يصادف الباحثين والطلبة اليوم، عند الخوض في تاريخ الجزائر عموما وتاريخها الحديث بشكل خاص من صعوبات ومشاكل لدى تعاملهم مع المصطلحات التاريخية وتحديد مفاهيمها بشكل في الحقيقة حجر عثرة إزاء تطور الدراسات التاريخية الجزائرية، وذلك لما تحمله بعض تلك المصطلحات في كثير من الأحيان من دلالات مجانبة للحقيقة أو يشوبها تعصب، ولاسيما أن الكثيرين ممن كتبوا عن الجزائر عامة، والتاريخ الحديث خاصة، وتركوا لنا مصادر متفاوتة القيمة كانوا في الواقع متحيزين



وذايتين، بحكم الخلفية الدينية والحضارية التي انتموا إليها أو العداوة التقليدية التي تجذّرت في بعضهم، على غرار آباء الفدية والأسرى و القناصل الأوروبيين.

ومن هذا القبيل ما فرضه الأوروبيون والمؤرخون من مفاهيم ومقاييس للأمور، إذ لم يراعوا الاختلافات الحضارية التي تُميز الآخرين عنهم عقائديا ولغويا واجتماعيا ونفسيا، إما جهلا بخصوصيات الآخرين أو اغترارا بمواقف الاقتدار التي هم فيها في جميع الميادين (زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، ضمن أعمال الدكتور عبد الحميد زوزو، المجلد 7، 2010، صفحة 07)، بما في ذلك ميدان الدراسات والأبحاث العلمية. فالسلطة والدولة والوطن والأمة، هي مصطلحات كثيرا ما استعملت من طرف الجانبين الجزائري والفرنسي، في كتابة تاريخ الجزائر الحديث، لكن الجانب الجزائري استعملها أحيانا لاعتبارات سياسية، بينما الجانب الفرنسي استعملها دون مراعاة للاختلاف الموجود بين تاريخي ضفتي المتوسط. وهي مصطلحات تتقارب معانيها ولكنها لا تترادف. فالجزائر مثلا دولة ذات سلطة وسيادة ولكنها ليست دولة وطنية بحكم أن حكامها ليسوا جزائريين، ويستمدون سلطتهم لا من داخل الموطن ولكن من السلطان العثماني، وهي ليست أمة ترتبط أساسا بقيم وطن وثوابته المختلفة ومكوناته الأساسية كما وضعها الغرب، ولكن هي أمة بالمفهوم الشامل الذي تجتمع فيه وتنضوي تحته كل الأوطان الإسلامية. والدولة الجزائرية قبل سنة 1830م كانت موجودة إذا كانت تفيد معنى السلطة أو السيادة. أما أن تكون موجودة كأمة متكاملة العناصر، حسب مفهوم الباحثين والمؤرخين الأوروبيين فأمر غير ممكن، إذ لم تظهر الدولة الوطنية ولا فكرة القومية إلا بعد الثورة الفرنسية، وإن كانت الفكرة موجودة منذ النهضة الأوروبية وتطورت خلال قرن الأنوار، لكنها لم تتحقق إلا بعد انتشار أفكار الثورة الفرنسية. فهل منطقي طرح سؤال: هل كانت إيالة الجزائر دولة وطنية؟ ألم تكن دولة موطنية وحسب، لكن بملامح "الدولة" بمفهوم ذلك الوقت، وبحكم أن حكامها الأجانب عنها توطنوا بها؟ وجاء المنهج المتبع منهج المقابلة بين الآراء والموازنة بين الرؤى المختلفة. أما عن الأهداف فتمثلت في التنبيه لضرورة دراسة المصطلح بمنطق زمني/تزامني، لأنه لتحديد أي مصطلح يجب الخضوع للسياق الزمني، في إطار تطوره (المصطلح) التاريخي على مر القرون.

1- مفاهيم:

ليس سهلاً أن نكتب عن هكذا موضوع لأن الإيديولوجية تقف دائماً في طريق المؤرخ والباحث، سواء في الجزائر أو في فرنسا، لذا علينا أن نتطرق إلى المصطلحات.

1-1- عند الفرنسيين:

المثقفون الاستعماريون وعلى رأسهم غوتيه (Gautier 1864-1940م) أنكر وجود الدولة الجزائرية قبل سنة 1830م، وذكر أنها لم تكن سوى ثكنة وميناء "تركي" رغم وجود عناصر أندلسية (Gautier, 1937, p. 435)، بل ذهب إلى أن فشل المغاربة في تكوين دولة يعود لغزو البدو (Gautier, 1937, p. 425). على عكس جورج ديبارمي Desparmet (1863-1942م)، المُعرب والملاحظ للحركة الوطنية بين الحربين. أما بعد الاستقلال، وفي دواليب الحكم، رُفض وجود أية دولة غير دولة عربية إسلامية (Meynier, 2001, p. 25).

إن تاريخ الجزائر لا يبدأ سنة 1830م، وصفاته الحالية اكتسبت من تركة غنية لماض طويل. إن ماضي الجزائر أعقد من ماضي تونس والمغرب الأقصى اللذان يتوسطهما، هي ملتقى التأثيرات ومهد حركات تمتد إلى ما وراء حدودهما. إن هذه البلاد التي تعتبر كثيراً خالية من الفردية هي مع ذلك من بين البلدان التي استعمرت في العالم، وربما البلد الوحيد الذي كان فتحه أطول وأصعب من غيرها. هذا التشبث ليس فجائياً، إن الجزائر مستعمرة (تعمير) حيث تأصل خلف هجرة أوروبية حديثة أو قديمة أغلبية أصيلة. (برنيان، نوشي، و لاكوست، 1984، صفحة 58).

1-2- عند الجزائريين:

إن تقسيم تاريخ الجزائر إلى فترة رومانية، وندالية، عربية وعثمانية وفرنسية هو تقسيم استعماري، قائم على أساس أن الجزائر لم تكن أمة أو لها شخصية مستقلة، وأنها كانت دائماً محتلة من طرف أجانب. وبهذا فليس لها تاريخ خاص بها، كانت دائماً مرهونة بأمة أخرى. إنها نظرية خاطئة لأنها أُلفت لتبرير الاحتلال الفرنسي... فالفترة العثمانية في الأساس هي شراكة بين البحارة العثمانيين، المحاربين بالمهنة، وبين السكان الجزائريين بعد ضعف المملكة الزيانية. هذه الشراكة تولّد عنها شكل من السلطة

مبتكر، لهذا فهذه الفترة ليست سوى فترة جزائرية، كما أن الأوروبيين كانوا يسمون هذا القطر بإيالة الجزائر (Ihaddaden, 2002, p. 09 et 10).

كما أن هناك خلط غير منطقي للمصطلحات ظهر نتيجة له تيار حديث في الجزائر يريد أن يثبت صفة "الأمة الجزائرية" منذ العهد الروماني مستدلين على ذلك بمحاولات ماسينيوس (238-148 ق.م) ويوغرطة (حوالي 160-104 ق.م) بناء كيان وطني؛ فالمؤرخ نايت بلقاسم (1927-1992 م) ظل يردد أن الجزائر ليست كيانا حديث النشأة، وماسينيوس هو المؤسس الأول للدولة النوميديّة، ويوغرطا هو رائد المقاومة ضد السيطرة الرومانية، وأخذ الإطار الجغرافي يتحدد في معالمه الكبرى منذ تلك الفترة، وبدأ الطابع الوطني يبرز ويتأكد (نايت بلقاسم، 1985، صفحة 42 و45). وهؤلاء الجزائريون لم يدروا أنه لا يضيرهم أن لا يكونوا أمة قبل ألفي سنة ولا حتى بعدها لأن فكرة الأمة نفسها حديثة العهد تعود فقط إلى القرن 19 م. ويرى المؤرخ سعد الله (1930-2013 م) أن وجود شعب جزائري تكوّن منذ الفتح الإسلامي منتما بذلك إلى الأمة الإسلامية يوم أن كانت هذه الأمة لها رابطة ووحدة حضارية (أ.قا، 1978، صفحة 10).

2- تعاريف:

قبل الخوض في مسألة "الدولة" الجزائرية يتوجب علينا عرض تعريفات مرتبطة بمفهومها. وهي تعريفات انتشرت منذ القرن 19 م، وبعضها حتى قبل الاحتلال الفرنسي. وقبل ذلك نشير إلى أن كلمة "إيالة" جاء تعريفها في قاموس المعاني كالتالي: "إيالة من مصدر آل، وهي إقليم أو جهة يحكمها وال (قاموس المعاني)، ويمكن أن نرادفها بكلمة "ولاية".

2-1- الدولة *État*:

هي الكيان الموجود على جزء من الأرض التي يعيش فوقها مجموعة من الأفراد بشكل دائم-شعب-، تربطهم روابط متداخلة لها عمق في التاريخ، تنظمها قواعد قانونية توصل إليها الأفراد فيما بينهم من خلال ذلك التقاسم المشترك للعيش سوية، والذي أنتج ثقافة معينة تتفرد بخصوصيتها. هذه العلاقات هي في أساس قيام تلك الهيئات التي أنيط بها صلاحية حل النزاعات وتنظيم المجتمع السياسي (الحكومة).



ومن أجل أن تأخذ هذه الدولة صفتها القانونية فلا بد من الاعتراف بها دوليا بأنها دولة لها سيادة على أرض وعلى سكان يمتلكون حكومة بسلطاتها الحقيقية التي تمثله... أي وجود سلطة سياسية يدعمها جهاز إداري وتقسيم للعمل (سويم، 2009، صفحة 43).

وقد أشار ابن خلدون لرجال الدولة بقوله: "إن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها، لا بد من توزيعهم حصصا على الممالك والثغور التي تصير إليهم، ويستولون لحمايتهم من العدو، وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك" (بن خلدون، 2010، صفحة 170)، وهذا ما كان يقوم به حكام الجزائر. أما في القرن 19م فأصبحت الدولة التي كانت تعني لذلك الوقت سلطة، حكم، دولة كانت مرتبطة باسم رجل أو عائلة حاكمة، أصبحت الكلمة متبوعة باسم البلد مثل الدولة المصرية، الدولة التونسية، وهما من التجديد الذي سمح بتطوير المفردات السياسية. كما ظهرت كلمات إقليم، قطر، وطن بمعناها الحديث (Merouch, 2001, p. 61).

2-2- السُّلطة *Autorité*

هي التأثير باستخدام القوة على مجموعة من الأفراد، أو الجهات من خلال التحكم بإصدار القرارات النهائية وفق مجموعة من القواعد القانونية، وتُعرف أيضا، بأنها توجيه السلوك لمجموعة من الأشخاص، من خلال التأثير عليهم وفقا لتطبيقات وأحكام تشريعية تحصل عليها السلطة بناء على موقعها في قمة الهرم الإداري. قد تُعد السلطة غير مشروعة في حال استخدامها للإجبار والإكراه والعنف أثناء تعاملها مع الأفراد الآخرين، وخصوصا في حالات الحروب. كما أن السلطة السياسية هي السلطة التي توجد بيد حكومة الدولة، والتي تقوم بموجها بالموافقة على مجموعة من القرارات الداخلية، أي داخل الدولة فقط، وخارجية، أي تعتمد على تعزيز العلاقات مع الدول الأخرى. لذلك يرتبط تطبيق السلطة السياسية بوجود مجموعة من قنوات الاتصال بين كافة الأفراد المرتبطين بالسلطة السياسية، في حالة الجزائر مثل: الديوان، مجلس الأعيان، وغيرهما (خضر). وفي اصطلاح النظرية السياسية تكون السلطة هي علاقة النفوذ التي تكون من خلالها شرعية ممارسة القوة أمرا مقبولا إلى حد ما، من قبل



الفاعلين الآخرين في الحالة، وتشتمل الشرعية في معظم الحالات السياسية على مبدأ الاحتكام إلى نظام قانوني راسخ (علي).

2-3- الوطن *Patrie*:

جاء في "لسان العرب" وطن فلان بالمكان أقام به، سكنه وألفه واتخذَه وطنًا: وطن بالريف. أما في معجم اللغة العربية المعاصرة فوطنٌ هو منزل الإقامة، وجمعه أوطان. وجاء في القاموس المحيط أن وطن جمع أوطان هو بلد الآباء والأجداد، وكذلك مكان الإنسان ومقره وإليه انتماؤه، ولد به أم لم يولد ("لسان العرب" وقاموس اللغة العربية المعاصرة و المعجم المحيط).

إن مصطلح الوطن تطور إلى حد بعيد مع رحلة الحداثة نفسها. فإلى نهاية القرون الوسطى اللاتينية كانت كلمة "الوطن" تشير إلى بلد المرء أو مدينته أو قريته. وقد كان أول ظهور للكلمة في اللغة الفرنسية في عصر النهضة. وكانت حتى نهاية القرن 16 م كلمة دخيلة أدخلها الإيطاليون (أميرة). والولاء للوطن يعني أن الرابطة التي تجمع المواطن بوطنه تسمو عن العلاقات القبلية والعشائري، ولا خضوع فيها إلا لسيادة القانون. وهي رابطة لا تنحصر في مجرد الشعور للوطن وما يطبع ذلك من مشاعر، وإنما تتجلى إلى جانب الارتباط الوجداني، في إدراك واعتقاد المواطن بأن هناك التزامات وواجبات نحو الوطن لا تتحقق المواطنة دون ارتباط طوعي بها (عبد الرزاق جنكو:، صفحة 38).

وقد ميّز رفاعة رافع الطهطاوي (1801-1873م)، وهو أحد رواد النهضة العربية، ميّز بين الوطن والأمة قائلاً أن ما يربط المؤمن مع إخوانه يربطه أيضاً مع باقي أفراد الوطن، لأن بينهم أخوة وطنية أعلى من أخوة الدين (Merouch, 2001, p. 63) قائلاً: "ومن الجنس الرومي من تناسل بالقطر وعُدّ من أبناء الوطن العظام" (رافع الطهطاوي، 2017، صفحة 184).

2-4- الأمة *Nation*:

في عدة معاجم (المعجم الوسيط، اللغة العربية المعاصرة، لسان العرب، القاموس المحيط...) هي جماعة من الناس أكثرهم من أصل واحد، وتجمعهم صفات موروثية، ومصالح وأماني واحدة، أو يجمعهم أمر واحد؛ دين أو مكان أو زمان (قاموس المعاني). وفي موسوعة الإسلام جاء مفهومها في القرآن بأنها مجتمع يجمعه دين واحد، ثم



بعد انتشار الإسلام أصبح معناها المجتمع الإسلامي (Denny, 2010) ، "كنتم خير أمة أخرجت للناس" ، الآية 110 من سورة آل عمران. وقد ميّز الطهطاوي بين الأمة المحمدية والأمة المصرية، لأن هذه تجمع أيضا غير المسلمين (رافع الطهطاوي، 2017، صفحة 52 و87).

2-5- القومية *Nationalisme*:

تعني الشعور المشترك بين جماعة معينة تنتمي إلى حضارة واحدة، ولها حدود جغرافية معينة، وتشترك في التاريخ والمصير (أ.قا، 1978، صفحة 69)، فهي الانتماء إلى أمة معينة والتعلق بها. والقومية بهذا المعنى تقوم على عنصرين: عنصر موضوعي هو مجموعة من الروابط المشتركة التي تجعل من شعب معين أمة بالمدلول العلمي، كالاشتراك في الأصل أو اللغة أو العقيدة، وعنصر معنوي أو شعوري، وهو الحالة النفسية التي يولدها قيام تلك الروابط التي هي شعور الانتماء المتبادل وتعلق بالوحدة التي يُكوّنها هذا الانتماء. وتستعمل كلمة قومية أحيانا للإشارة إلى حركة القوميات، وهي عبارة أطلقت على حركة سياسية تنادي بحق كل أمة في أن تكون وحدة سياسية مستقلة (مولا، 2010، صفحة 2604). إن نموذج الدولة القومية جاء بعد ظروف معينة خاصة بصراعات دارت داخل أوروبا وبين مكوناتها الدينية والسياسية ودوافعها الاقتصادية، وصُدِّرَ هذا النموذج الغربي خارج إطاره الزماني والمكاني والحضاري بوصفه منتجا نهائيا قابل للتفعيل، ونمطا يقوم على وجود إقليم ترابي محدد بحدود مقدسة ولغة أو مذهب أو إثنية مشتركة في نفس المجتمع، مع الاشتراك في تاريخ، ولو كان "منتحلا أو متوهما"، ثم تكون للدولة سيادة على الإقليم ليقع تعريف الدولة الأمة (سحنون).

ويحدث أن يكون الحكام والمحكومين ينتمون لنفس المجموعة الدينية، ويتقاسمون نفس المعتقدات والقواعد الأساسية، هذا يجعلهم مع طول مدة الحكم ينضمون للدولة الموجودة، وهذا أحد الاختلافات الأساسية بين الحكم العثماني والفرنسي. وابتداء من القرن 19 م ومع النهضة العربية أصبح مصطلح الأمة يعني الوطن مثل الأمة المصرية، الأمة التونسية، الأمة العربية. وقد حملت عدة جرائد عنوان "الأمة" بمعنى الوطن (Merouch, 2001, p. 59).

2-6- الوطنية *Patriotisme*:

تعني حب الإنسان لوطنه الذي ولد فيه وتربى فيه، واستعداداته للدفاع عنه والموت في سبيله. وهو مفهوم كان مشترك بين جميع الجزائريين (أ.قا، 1978، صفحة 68 و69). وقد غاب هذا المفهوم عن المغرب الكبير، ومرد ذلك مع أسباب أخرى، هو أن هذا المفهوم قد تأسس في الوجدان العربي، في الشام والعراق خاصة، ضدا على سياسة التتريك العثمانية ثم على واقع التجزئة الاستعمارية. أما المغرب الكبير فلم تمسه سياسة التتريك، أما التجزئة فكانت فيه، ولا تزال إرثا تاريخيا، لم يخلقها الاستعمار وإن كان عميقا. وهو وضع جعل أقطار المنطقة تنشد وحدة تجمع بينها من أجل توحيد الجهود لمقاومة الاستعمار الفرنسي (الجابري).

3- مفاهيم خاصة بالجزائر الحديثة:

بعد هذه التعاريف يمكن أن نتساءل: هل كان الحكم العثماني في الجزائر حكما شرعيا، كان يمكن أن يتطور إلى حكم وطني؟

3-1- سلطة شرعية:

ذكر خير الدين بربروس (بايلرباي الجزائر بين 1519-1534م) في "مذكراته"، بعد انقلاب أهالي مدينة الجزائر عليه أنه منذ أكثر من مائة سنة لم يكن في الجزائر دولة ولا حكومة، وأن "الكفار" أدركوا هذا واستولوا على أحسن الموانئ. وأضاف أنه سيتأكد لأهالي مدينة الجزائر أن إدارة الجيش والدولة أمران خاصان بـ"الأتراك". وإن لم يكن هؤلاء في شمال إفريقيا سوى حفنة "متناثرين في بلد أكبر أضعاف المرات من الأناضول، محاولين ضبطه ببضعة آلاف من الأتراك. وفي ذات الوقت نتصدى لإسبانيا التي تعد أكبر بلد في أوروبا" (بربروس، 2013، صفحة 106، 107 و109).

وحسب خير الدين فالعرب (الجزائريون) لا يعرفون النظام ولا الطاعة، فهم لم يعيشوا في كنف دولة ينتسبون إليها (بربروس، 2013، صفحة 121). مرد هذا الموقف أن خير الدين وفد على الجزائر في فترة حرجة من تاريخها. لقد أنقذ العثمانيون بتدخلهم في القرن 16م المغرب الإسلامي من الاحتلال الأجنبي المؤكد بتحالفهم مع الجزائريين لصد العدوان الصليبي وإقامة حكم إسلامي ثابت وقوي طيلة ثلاثة قرون. معتمدين في ذلك على تأييد الخلافة لهم، وهو المصدر الروحي القوي الذي اعتمدوا عليه في حكم

الجزائريين، حتى عندما تمردوا على السلطان. والمصدر الثاني لقوتهم هو استجابتهم لداعي الجهاد كلما حانت الفرصة، لاسيما في أوائل الحكم العثماني للجزائر، ومع الجهاد جاء الغزو البحري والثروة الاقتصادية سواء للخزينة أو لجميع السكان (أبو القاسم، 1998، صفحة 15 و16).

وهذا ما أكده زعيم الحركة الوطنية، مصالي الحاج (1898-1974م) في مذكرة رفعها باسم حزب "حركة انتصار الحريات الديمقراطية" إلى هيئة الأمم المتحدة بتاريخ 20 سبتمبر 1950م:

« *Il n'y eut point de domination turque en Algérie, il y eut simplement une sorte d'alliance entre deux états musulmans pour conjuguer leurs forces et faire face à une croisade préparait contre eux. Cette alliance n'était qu'une réponse logique aux croisades faites au nom de la chrétienté par l'Espagne* » (زوزو، المرجعيات التاريخية للدولة الجزائرية الحديثة (مؤسسات وموثائق)، ضمن أعمال الدكتور عبد الحميد زوزو، المجلد 5، 2010، صفحة 236).

وهذا يفسر التحالف بين الجزائريين والعثمانيين في بداية القرن 16م، ويجعل من العثمانيين حكام شرعيين، لأن آل عثمان كانوا رمزا لوحدة العالم الإسلامي، وهي فترة لم يتعرف المسلمون فيها بعد على المفاهيم الأوروبية؛ كالجنسية والوطنية والقومية. كان أساس العلاقة هو أخوة العقيدة التي جعلت التضامن الإسلامي يتجاوز الخصائص الإثنية والمميزات الثقافية (سعيدوني، 03 مارس 1998). وقد أكد الكاتب وتبلد Watbled (1828-1905م) في دراسته "أن العثمانيين لم يستولوا على الجزائر بقوة السلاح، وأن عمل عروج (قتل سنة 1518م) وخير الدين بربروس كان نابعا عن قرار وإقرار من الجزائريين" (Watbled, 1873, p. 353). فالدولة العثمانية بهذا الاعتبار لا تختلف في حكمها للأقاليم الإسلامية عن الخلافة الراشدية والأموية والعباسية والفاطمية، ما ينتفي معه الشعور بالاختلاف بين الحاكمين والمحكومين، فالكامل يسلم بشرعية السلطان "الحاكم الشرعي" الذي يجمع كلمة المسلمين ويوحد صفوفهم دون اعتبار للاختلافات اللغوية والتباين العرقي أو البعد الجغرافي، لأن الذهنية الإسلامية قبل تأثرها بالفكر الأوروبي ترفض التمايز القومي وتؤكد الترابط الديني. وأخذ بهذا



المفهوم عديد من الكتاب الجزائريين رافضين الأطروحات الغربية التي تبرر الحاضر بتفسير وتقييم الماضي، والأفكار التي تحكم على الماضي من خلال مناهج فكرية وُضعت مسبقا، بل تقبلوا تركة الماضي كما هي، ما أدى أحيانا إلى تأثر أحكامهم بالعاطفة الوطنية والطابع الحماسي والنضالي. مثل المؤرخ توفيق المدني (1899-1983م) الذي رأى تأسيس الدولة الوطنية بمعناها الوطني الحديث وجمع الوحدة الوطنية الجزائرية الإسلامية ضمن دولة واحدة وحول عاصمة واحدة وتحت راية واحدة (سعيدوني، 03 مارس 1998)، ذاكرا أن الجزائر بحدودها الوضعية المعروفة في الفترة الحديثة كانت تتمتع باستقلال داخلي واسع، تحت سيادة الباب العالي، وشبه نظام الجزائر بنظام الدومنيون الإنكليزي (المدني، 1984، صفحة 36)، ومولود قاسم نايت بلقاسم الذي رأى الروابط الجزائرية العثمانية مجرد علاقات تعاون متبادلة، ضمن استقلالية الجزائر استقلالا تاما وسيادة كاملة (نايت بلقاسم، 1985، صفحة 80).

صحيح أن السلطة عموما كانت في أيدي "تركية" عثمانية من الداي إلى الجندي، وكان الجزائريون يجندون ليعملوا في الجيش ويُعينون في المراكز الدينية، كما كان عليهم أن يدفعوا الضرائب وأن يؤيدوا الدولة. وكانت التزامات اعترافهم بالخلافة باسم الدين تمنعهم من الثورة، لأن الشعور الوطني، بل الفكرة القومية عامة لم تكن قد استيقظت بعد، ذلك أن الشعور الديني كان عندئذ أقوى. وصحيح أيضا أن السخط كان شائعا (انظر أسفله) لكن هناك عوامل منعت الجزائريين من القيام بحركة قوية ناجحة ضد الحكم العثمانيين، منها الخوف من المطامح الأوروبية التي كانت غالبا ما تهددهم، ومنها فقدان الضمير الاجتماعي الذي تحركه طبقة وسطى قوية. ذلك أن تأثير الحكم المطلق وتأثير الدين في كل مظاهر الحياة، وعدم الوحدة الاجتماعية كانت ملامح مشتركة للحكم العثماني في الجزائر (أقا، 1978، صفحة 168). إن النظرة التاريخية الواقعية لقضية السيادة الجزائرية في العهد العثماني تفرض علينا أن لا نرى في استقلال "الدولة الجزائرية فخرا واعتزازا ولا في تبعيتها للدولة العثمانية خطأ وانتقاصا، لأن وضع الجزائر يتجاوز الأحكام الآنية ويندرج في إطار أوسع ويستجيب لمتطلبات إستراتيجية فرضتها التحولات الداخلية والظروف الخارجية" (سعيدوني، 03 مارس 1998).

2-3- استقلالية:



لقد كانت علاقات الإيالة مع الباب العالي علاقة السيد بالسيد، لا تربط بينهما سوى روابط الدين والمصالح المشتركة. فكلما تعيّن داي جديد كانت تبعث للسلطان العثماني رسولا مع هدية يأتي بالفرمان. ما عدا هذا النوع من العلاقات، فإن الإيالة تعتبر مستقلة، تعلن الحرب على من تشاء وتسالم من تشاء (العربي الزبيري، 1984، صفحة 36). ولم تكن حكومة إسطنبول تمارس أي سلطان على الحكام في الجزائر، ولا تُنفذ أوامرها إلا إذا كان لها مساس بالمجال الديني. وإن لم يكن للإيالة تمثيل دبلوماسي في الدول الأوروبية وأمريكا فلأنها كانت تعتبر نفسها في حرب مستمرة مع الدول المسيحية (العربي الزبيري، 1984، صفحة 37). والسلطة التي تبرم المعاهدات وتوقع الاتفاقيات وتبادل القناصل والبعثات الدبلوماسية مع غيرها، لا شك لا تتأتى إلا لدولة ذات سيادة، بل وذات مهابة ونفوذ كدولة بحرية لها حضور بارز في ساحة الكبار بفضل ما عرفت به من الشجاعة والتضحية، لم تغب عن الساحة الدولية المتسمة يومئذ بالمجابهة والتحدي (زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، ضمن أعمال الدكتور عبد الحميد زوزو، المجلد 7، 2010، صفحة 06).

ومن مظاهر استقلالية الجزائر عن الباب العالي ما ذكره الطبيب الرحالة ابن حمادوش (1695- حيا في 1754م) أن السلطان العثماني أرسل مندوبا عنه للجزائر، فلم يرحب به المسؤولون ولم يستقبلوه، فبات ليلته في المرسى ثم دخل المدينة وحده، "لم يتوجه له الاختيارية (أعيان وكبار البلد) لعلمهم أن ليس تحت مجيئه منفعة" (ابن حمادوش، 1983، صفحة 120). رغم هذا فإن حكام الجزائر العثمانيين وإن استبدوا بالحكم فإنهم ظلوا يهادون السلطان ويسترضونه، وآخر من فعل ذلك هو إبراهيم خوجة كوتشوك (1745م-1748م) الباشا المعاصر لابن حمادوش، حيث أرسل سنة 1158هـ/1745م إلى السلطان أربعين نصرانيا وثمانية مكاحل وأشياء أخرى ثمينة انتظارا أن يرسل له السلطان بالفرمان (أ.قا، 1978، صفحة 155).

لقد بدأت مظاهر الاستقلالية بالحكم عن السلطان العثماني منذ عهد الأغوات (1659-1671م) عندما وافق السلطان على نظام حكم الأغوات سنة 1659م مشروطا على الديوان تحمّل نفقات الجند ببذل المرتبات للضباط وجميع الموظفين في الحكومة، وبهذا أحرزت الحكومة الجزائرية الجديدة على شبه استقلال من الحكم الذاتي في دائرة



السلطنة العثمانية (بن محمد الجيلالي، 2007، صفحة 159 و160). وفي سنة 1711م "أصبح القوم لا يؤولوا عليهم إلا من يرضونه، وأصبحت الجزائر شبه ولاية مستقلة لا ارتباط لها بدار الخلافة إلا كسائر ارتباطات الحكومات المستقلة بالسلطنة، واتخذ القلم العربي صبغته الرسمية محتلا مكانه في الإدارة الجزائرية إلى جانب القلم التركي (اللغة العثمانية)، وأصبح الداوي الباشا عبارة عن ملك مستقل، له مكانته الملكية بين الملوك ورؤساء الحكومات، يختار وزراءه ويولي على الأقاليم ويقيم العدالة ويفاوض الدول الأجنبية" (بن محمد الجيلالي، 2007، صفحة 188 و189). حدث هذا بعد أن تغير نظام الحكم سنة 1710م حيث أصبح الداوي باشا والباشا هو الداوي (أولهم الداوي بابا علي شاوش (1710م-1718م))، وأصبحت الجزائر مستقلة بإدارة شؤونها، وكان حكامها من قبل بمثابة أتباع للسلطين العثمانيين. واستمرت إمدادات الباب العالي للجزائر بالذخائر والمراكب الحربية والعتاد إلى سنة 1770م، بسبب المسألة الشرقية، ثم انقطعت بعد ذلك. وكان للحاكم العثماني في الجزائر الحرية المطلقة فيما يفعله، فله فتح باب المحادثات والمفاوضات السياسية مع الأجانب، وله حل المشاكل الخارجية بنفسه، وله إعلان الحرب والسلم، وإمضاء المعاهدات وإبرام العقود الدولية، وقبول الممثلين الدبلوماسيين... مستمدا قوته هذه من ديوانه (بن محمد الجيلالي، 2007، صفحة 17 و220).

3-3- حكم أجني؟

لقد اعتبر الفرنسيون الحكم العثماني للجزائر حكما أجنيا. إن القول أن الحكام كانوا أجانب عثمانيون أو أتراك نازحون لا يستقيم، لأن علاقة الحاكم بالمحكوم تعود لمطلع القرن 16م، وتستمد شرعيتها من العريضة (1519م) التي طالب فيها السكان الحضور والعون للوقوف في وجه الهجمات المسيحية المتكررة على موانئهم ومدنهم (زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، ضمن أعمال الدكتور عبد الحميد زوزو، المجلد 7، 2010، صفحة 11). كما لم تؤثر الأقلية العثمانية في البنية الاجتماعية لسكان المدن ولا في طريقة الحياة وأسلوب المعيشة، ورغم المدة الطويلة التي قضاها العثمانيون بالجزائر فإن تأثيرهم لم يتعد الأنظمة الإدارية، ولم يتجاوز الألقاب والرتب العسكرية وبعض الأنواع من المأكولات والملابس والفنون. وهذا يعني أن وجود العنصر العثماني بالجزائر



على رأس جهاز الدولة كان وجودا عسكريا وإداريا فقط، وليس له أي صبغة أو طابع استعماري. لهذا يجب التفريق بين الجزائر ككيان مستقل معترف به دوليا، متحالف مع الدولة العثمانية في نطاق الرابطة الإسلامية ومن أجل المصلحة المشتركة، وبين أوضاع الأقلية العثمانية الخاصة التي لم تكن تختلف في شيء عن أوضاع عثمانيي تونس الحسينية ومصر محمد علي (1769-1849م)، وإن كانت لم تطور أسلوب حكمها في إطار الأسرة الوراثية كما حدث في تونس ومصر وأواخر الفترة الحديثة (سعيدوني و بوعبدلي، الجزائر في التاريخ، الجزء 4: العهد العثماني، 1984، صفحة 94).

4- موقف بعض المؤرخين من المسألة:

إن تفصيل المسألة لدى بعض المؤرخين يكون بطرح رؤاهم لها، وموقفهم من مفهوم الدولة الوطنية، ومدى تطابق المفهوم مع الجزائر الحديثة.

4-1- الموقف المؤيد:

ثمن المحقق والمترجم محمد بن عبد الكريم (1924-2012م) كتاب ابن ميمون الجزائري (توفي بعد 1708م) حول فتح وهران الأول "التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية"، وكان حقيقه وقدم له، واعتبره "مزية انتشار فكرة الوطنية الحققة، واستمرار الحماس الملهب في صفوف كافة الجزائريين، لا فرق في ذلك بين السيد والمسود، كلهم سواسية في إخلاصهم لوطنهم المفضى" (ابن ميمون، 1981، صفحة 95).

كما وصف المؤرخ جوليان (1891-1991م) الجزائر بأنها دولة "الجزائريين" وهو يقصد دولة عثمانيي الجزائر، ذاكرا أنها التسمية التي عُرِفوا بها، وأن خير الدين هو الذي وضع أساس التنظيم العسكري الذي عرفته الجزائر لغاية الغزو الفرنسي (Julien, 1956, p. 259). وجعلها سعد الله دولة مستقلة على ساحل المتوسط الجنوبي قبل الحملة الفرنسية سنة 1830م (أ.قا، 1978، صفحة 166).

وقد اتخذ نايت بلقاسم مظاهر السيادة المتمثلة في ربط العلاقات الدولية وإبرام المعاهدات السلمية وتوقيع الاتفاقات التجارية، وإعلان الحرب وعقد السلم وإجراء المفاوضات مع الدول الكبرى المعاصرة، تارة بعنوان "جمهورية الجزائر" وحينما بعنوان "مملكة الجزائر"، الدليل القاطع على وجود دولة جزائرية معترف بها وذات سلطان في

الداخل والخارج (نايت بلقاسم، 1985، صفحة 82) كرد فعل على من كان ينكر وجود هذه الدولة قبل سنة 1962م (زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، ضمن أعمال الدكتور عبد الحميد زوزو، المجلد 7، 2010، صفحة 06). فهي الأمة التي اعترفت باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1776م، وأول أمة اعترفت بالجمهورية الفرنسية الأولى سنة 1793م (نايت بلقاسم، 1985، صفحة 29). ويؤكد هذا ديباجة اتفاقية بين الجزائر والبرتغال في بداية القرن 19م، التي جاءت كالآتي:

"الجزائر 6 جويلية 1810. إبرام اتفاقية هدنة وفدي بين السيد الحاج علي، باشا الجزائر (الحاج علي الشريف (1809م-1815م)) ووزراء ديوانه من جهة، وبين مبعوث البرتغال... (زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، ضمن أعمال الدكتور عبد الحميد زوزو، المجلد 7، 2010، صفحة 47).

2-4- الموقف المعارض:

إن استبعاد العاطفة الدينية وتجاهل المناخ الثقافي والواقع السياسي لتلك الفترة، منطلقا من الاعتبار القومي والتصور الأوروبي لطبيعة السلطة ومفهوم الدولة منتهيا، اعتمادا على الوثائق الغربية والمصادر الأوروبية خاصة، إلى نفي الاستقلال عن الدولة العثمانية نفيا كلياً، معتمدين في ذلك على تقارير ورسائل وكتابات المبشرين والدبلوماسيين والرحالة الأوروبيين قبل الاحتلال، مثل الأب دان (Dan 1580-1649م) (ذكر أن حكومة "أتراك" (هكذا سماها) في الجزائر قامت على الحرب، وأن الجزائريين كانوا في قبضة من حديد لجهاز عسكري أجنبي (Dan, 1646, p. 95)، والشاعر بانانتي Pananti (1766-1837م) (ذكر أن قطاع طرق الأناضول يفدون على إفريقيا الشمالية كل سنة ليخدموا في الإيالات، وأن حكومة الجزائر تتكون من مغامرين "أتراك" (بهذا اللفظ) فقط دون بقية السكان، على عكس تونس التي أصبح الحكم فيها وراثي (Pananti, 1820, pp. 55,56 et 74))، والقنصل تانفيل Thainville (توفي 1818م) (اعتبر "أتراك" (بهذا اللفظ) الجزائر مجرد جماعة من قطاع الطرق والصوص قديمت من الأناضول (Thainville, 1927, pp. 131,148 et 150)، وأضاف واتبلد Watbled أن حكومة الجزائر قامت على النهب والقتل، وهي حكومة قبلت بها الحكومات (الأوروبية) التي عانت منها هي نفسها (Watbled, 1873, p. 287)، أما الجغرافي والمؤرخ أوغسطين

برنارد A.Bernard (1865-1947م) فيرى دون مبالغة، حسبه، أن الجزائر الجزائرية لم تكن موجودة قبل وصول الفرنسيين، إما تُنسب لمدينة الجزائر، أو دولة الجزائر أو الإيالة الباربريسكية لأن اسم الجزائر كبلاد لم يظهر إلا بعد سنة 1830م (سعيدوني، مسألة السيادة الجزائرية في العهد العثماني محاولة لتقييم الحكم العثماني للجزائر، 03 مارس 1998)، ورأى الأستاذ موريس واهل M.Wahl (1853-1900م) حكم العثمانيين للجزائر استعمار عسكري أكثر منه حكومة دولة (Maurice, 1903, p. 98).

5- نحو دولة وطنية:

رغم كل ما ذكر يبقى الحكم العثماني للجزائر مرحلة تاريخية كانت أساسية لتشكّل الوعي الوطني. كيف ذلك؟

5-1- دولة وطنية؟

يوافق المؤرخ زوزو (ولد 1941م) قراءة المؤرخ سعيدوني (ولد 1940م) للمصطلحات، فالدولة الجزائرية الحديثة لم تكن موجودة قبل تجربة الأمير عبد القادر (1808-1883م). والجزائريون متفاوتون من حيث وعيهم الوطني وإدراكهم السياسي؛ فمنهم الموطنيون ومنهم الوطنيون رجال سلطة ورجال دولة. وإذا كانوا كلهم موطنيين فغالبيتهم رجال سلطة، وقليل منهم رجال دولة بمعنى الأمة (الدولة الأمة). ورغم جدية وخضوع الدراسات الفرنسية لتاريخ الجزائر لطرائق البحث الحديث فليست كلها صوابا في موضوع الأمة الجزائرية عبر التاريخ. (زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، ضمن أعمال الدكتور عبد الحميد زوزو، المجلد 7، 2010، صفحة 08 و09).

لقد تأثر الحكام العثمانيون بالموروث الجزائري، إذ لم يحاولوا القضاء على الشخصية الجزائرية، بل حافظوا على مختلف عناصرها: أبقوا اللغة العربية وتعلموها، ثم صاروا يستعملونها في مراسلاتهم حتى مع الباب العالي نفسه. ذكر أحمد باي الشرق (1786-1850م) في "مذكراته": "إنني بعثت رسائل إلى الوزير رشيد باشا، ولا أدري إذا كانت هذه الرسائل عرضت على السلطان أو لا، ولكنني أجزم بأن سي حمدان (خوجة) (1773-1842م) الذي كان في القسطنطينية، آنذاك، قد كلف بترجمتها إلى التركية" (العربي الزبيري، 1984، صفحة 34) و (M.Emerit, 1er et 2ème trimestre 1949, p. 89).

كما لاحظ القنصل شالر (1773-1833م) سنة 1826م أن الحكم كان من اختصاص العثمانيين لكن ثرواتهم كانت تعود إلى العائلات الجزائرية. وكانوا يعتبرون الجزائر بلادهم ويرمون إلى القرار بها مع أهاليهم (William, 1830, p. 38 et 60). ونشأ شيئا فشيئا نوع من التحول والتشاكل بين المجموعات المختلفة التي رُبطت بأرض واحدة وتباينت حسب مقاييس طبقية اجتماعية بعيدا عن الفروق الأصلية. ويلاحظ شالر أنه لا وجود لبروز التعصب الغريب والكره تجاه من كانوا يدينون بغير الإسلام (برنيان، نوشي، و لاكوست، 1984، صفحة 180). لهذا فالجزائر لم تكن مجموعة من السكان لا يربطهم إلا الانتماء إلى المجتمع الخاضع إلى الحكم العثماني، وإنما كانت البلاد سنة 1830م تؤلف مجموعة ترايبية تميزها جملة من المعطيات عبر قرون طويلة من التطور، حيث قامت من مظهر مستويات متعددة تلك التقسيمات الاجتماعية والروابط الاقتصادية والتشريعية بين مجموعات شديدة الاتصال وإن كانت مختلفة التركيب (برنيان، نوشي، و لاكوست، 1984، صفحة 214).

لقد أهمل المؤرخون الفرنسيون في تناولهم لتاريخ الجزائر الشعب الجزائري. لقد كتبوا عن الجزائر كمنطقة جغرافية من العالم تداولت عليها الدول والشعوب من الفينيقيين حتى الفرنسيين، وليس هناك في نظرهم شعب أو أمة أو كيان أو مجتمع متماسك، وإنما هناك قبائل متنافرة تخوض حروبا مستمرة، ولا تخضعها إلا القوى كالرومان والعثمانيين والفرنسيين تبريرا لوجودهم (أ.قا، 1978، صفحة 36).

2-5- سلطة للقمع؟

يعترف سعد الله أن حكام الجزائر العثمانيين، واعتمادا على الكتابات المحلية (لم نتعرض لها لأسباب منهجية بحثية) التي وصفتهم بكل الصفات، فهم "أتراك" و "أعاجم" لأن أصولهم من خارج الجزائر (تركية، يونانية، ألبانية، إيطالية)، ونُعت منهم من ارتد عن المسيحية بالأعلاج، وكان أغلبهم لا يتكلم إلا "التركية" (العثمانية)، غلب على كثير منهم الجهل، لا يعرفون حتى الكتابة والقراءة. كما وُصفوا بمغامرين كان همهم جمع المال والتسلط، أحكموا قبضتهم على الجزائريين بيد من حديد عن طريق الضرائب والرشاوى والهدايا... بل يضيف سعد الله أنهم تعدوا على حرمت الأوقاف وأموال العجزة واليتامى، وكانوا لا يسمحون للجزائري بالاقتراب من السلطة، سمحوا لليهود بالسيطرة على

الاقتصاد، وفضلوا المسيحية (الأسيرة) على الجزائرية (المسلمة)، لا يتكلمون لغة الجزائريين ولا يستعملونها في الإدارة إلا قليلا، ولا يوظفون الجزائريين إلا في الوظائف الثانوية، ولا يسوون في تطبيق أحكام الشريعة بين المسلم الجزائري والمسلم العثماني، كما كانوا "جفاة غلاظا امتاز عهدهم بالعنف الدموي وقصر فتراتهم في الحكم وبالفوضى وانتشار الرشوة والظلم والفساد" (أبو القاسم، 1998، صفحة 14 و15).

ضف لهذا أن "الدولة" لدى الجزائريين كانت آلة للقمع المالي *Machinerie d'oppression fiscale* إذ كانت غائبة لا تظهر إلا عند موعد المحلة لجمع الضرائب (Meynier, 2001, p. 27). لهذا المثل المحترم والمراد لدى الجزائريين كان دائما المجموعات المستقلة (القبائل المتمردة) نظريا المتضامنة التي لا يسألها أحد. إن غياب الدولة هذا أثر جدا على البناء الوطني، ما كان يهم هو جمع الضرائب دون الاهتمام برودة فعل الجزائريين، وإهمال الرعاية. كانت سلطة تعيش على المجتمع وفوق المجتمع. لكننا نجد توفيق المدني يرى أن الدولة هي التي منحت شكلا لوطن قومي بدائي *patrie protonationale* (Meynier, 2001, p. 28).

6- موقف الجزائريين من حكامهم:

لماذا لم يثر الجزائريون على حكامهم العثمانيين إذن؟ تعددت الأسباب واختلفت، كما أن الجزائريين لم يتوقفوا عن التمرد والعصيان، لكن ليس كشعب واحد بل كقبائل وعشائر؛ متحالفة حيناً ومتنافرة متقاتلة أحيانا كثيرة.

6-1- الأوضاع:

شهدت الجزائر في العهد العثماني أحداثا كثيرة و"تقلبات في موجات حربية وسياسية عظيمة، وتدافعتها تيارات صاخبة فارتطمت بمهالك موبقة. كما طرأت على حياتها اليومية تقاليد وعادات جديدة في تطورات عديدة؛ سواء في نظم الحكم أو أساليب العيش. والعلاقة مع الباب العالي كانت ضئيلة لاسيما في العهد الأخير، حيث كانت أكثرية الطبقة الحاكمة في الجزائر طبقة خسيصة لقيطة. كما استبد الدايات وسائر رياس البحرية وزعماء الإنكشارية بسياسة البلاد وظلم العباد" (بن محمد الجيلالي، 2007، صفحة 94).

في بداية هذا القرن 19م كان تفجر النزاعات في منطقة القبائل، وخاصة مع جماعات فليسة في زاوية في جرجرة الذين كانوا حسب العادة مصدر العساكر. وفي ناحية قسنطينة الغربية ومملكة بني عباس التي تولاهما أولاد مقران، وفي عنابة خرجت الحنانشة من سلطة الجزائر، وخرج مركز عين ماضي في جنوب الجزائر بسيطرة التجانية على الحكم، وأصبحت مركز إشعاع للطريقة التي هددت في نفوذها نحو الشمال بانتشار زواياها. كما ظهرت القوى الكبرى في وهران من حيث تشتت الحكم من طرف الزوايا التي كانت لدراقوة بمساعدة ملوك المغرب الأقصى، ما جرّ إلى الثورات التي ساندتها باي وهران الكرغلي سنة 1814م. فكان الشعور السائد هو العداء ضد الحكم العثماني الإقطاعي الذي لم يدخل تحت سيطرته أولئك المستفيدون منه، مثل أهل المخزن والأعزال وغيرهم. كما كان الحكم يُلام على ربط علاقات مع "الكفار" وتفضيل التجار الأجانب ورجال الأعمال من اليهود على حساب المسلمين الجزائريين، إضافة لفرض الضرائب (غير الشرعية عليهم، وهو ما يخالف القرآن مع عدم المساواة بين الأفراد في الجماعة الإسلامية (برنيان، نوشي، ولاكوست، 1984، صفحة 170).

كذلك كان عدد العثمانيين قليلا جدا بالنسبة لعدد الجزائريين بحيث لم يتجاوز في أي وقت من الأوقات 12 ألفا، ومعظمهم كانوا في العاصمة أو في عواصم الأقاليم وفي محطات معينة. ونقرأ في أخبار هذا العهد أن الباشا فلانا قد أرسل المائة يولداش للقضاء على إحدى الانتفاضات المحلية، وكثيرا ما نقرأ أن كرسي الباشوية (الحكم) كان يخلو فيأتي أحدهم ويدخل القصر بسيف أو عصا أو بجماعة من الجنود ويعلن نفسه باشا فيأتي الديوان والعلماء والأشراف والأعيان لمبايعته (أبو القاسم، 1998، صفحة 16)، وقد ذكر الزهار عدة أمثلة عن ذلك (الزهار، 1980، الصفحات 80-82 و111، 112 و132). إذن لماذا لم يحاول الجزائريون أمام هذه السهولة في الاستيلاء على الحكم أن يتولوا أمرهم بأنفسهم؟

2-6- الأسباب:

- الفكرة الراسخة أن آل عثمان هم الذين هياهم القدر لحكم المسلمين، وأن المتمردين عليهم سيقع لا محالة فريسة في أيدي المسيحيين.

- تأييد مهاجري الأندلس والأشراف ومعظم المرابطين واليهود والأعلاج للحكم القائم ما داموا مستفيدين منه. وقد عرف الحكام العثمانيون كيف يكسبون هذه الفئات المؤثرة في المجتمع إلى جانبهم عن طريق الإطراء والنفوذ والهدايا والإعفاء من الضرائب...
- عدم معاملة آل عثمان للجزائريين معاملة واحدة، فهناك المخزنون المتعاملون معهم، وهناك المستقلون أو شبه ذلك، وهناك الرعايا الذين كانوا محل اضطهاد شديد.
- غياب الفكرة الوطنية بمفهومها الحالي بين الجزائريين. فالعلاقات الإسلامية كانت أقوى من العلاقات الجغرافية السياسية. وكان تقسيم الجزائر في العهد السابق إلى قسم زباني وآخر حفصي لم يساعد أيضا على ظهور مفهوم الوحدة الجغرافية السياسية بين الجزائريين في العهد العثماني.
- كانت الروح القبلية ما تزال بارزة عند معظم السكان خارج المدن (أبو القاسم، 1998، صفحة 17).

3-6- التفسير:

كل هذه العوامل قد جعلت أغلبية الجزائريين يعيشون على مضض وضعهم الثانوي خلال هذه الفترة، رغم أنه قد يبدو وضعا غير طبيعي وغير منطقي، ومع هذا كان الجزائريون يثورون على الحكم. كما أن الدلائل كانت تدل على أنهم كانوا سيثورون لا محالة ثورة وطنية متحدة ضد الحكم العثماني لولا تدخل الاستعمار سنة 1830 م (أبو القاسم، 1998، صفحة 17 و18).

لقد كان بين الجزائريين كره مشترك ضد الأجانب في بلادهم، أي أنه قد كان "ضمير وطني" قبل الاحتلال الفرنسي (قبل عصر القوميات)، وكان الجزائريون سيثورون على حكامهم العثمانيين الأجانب، طال الزمن أو قصر، لتحقيق حكم وطني، لو لم يتدخل الاستعمار (أ.ق، 1978، صفحة 64). وهذا الحكم الوطني كان بدأ يبرئ له الداي علي خوجة (1817-1818 م) عندما اعتمد على أهل البلد في محاولته وقف تدخل العسكر في تعيين الباشا وفي تدخلهم في أمور الحكم. قال لسكان مدينة الجزائر: "إني أريد أن أنتقل إلى القصبة وأسكن بها لأجل أن تنقطع فتنة العسكر كل يوم من البلد، ويتهنأ الناس، وقد بعثت لكم لكي تعينوني في هذه الليلة، وتكون لكم عندي حضوة

كبيرة". وأجابوه بالسمع والطاعة (الزهار، 1980، صفحة 133 و134). لكن الموت سبقه قبل أن يصبح أهل الجزائر أهل حل وربط، وعادت الأمور لسابق عهدها مع خليفته.

7- جزائر الجزائريين:

في نهاية المطاف وصلنا مرحلة هامة من الدراسة، وهي أهمية المصطلح في الكتابة التاريخية. هذا لو يكون استعمال المصطلح المرتبط بالفترة، وليس المصطلح اللاحق لها.

7-1- النظريات الغربية لا تستقيم وتاريخ الجزائر:

إن التوجه الذي ينفي استقلالية الكيان الجزائري عن الدولة العثمانية يقوم على فكر ليبرالي يُخضع الماضي لأحكام الحاضر، متجاوزا المنطقية لفائدة أفكار مستحدثة وإيديولوجية غريبة عن المجتمع الجزائري وآراء سياسية وقناعات ثقافية، ويحاول تقييم واقع انقضى بحاضر نعيشه، ويأخذ بمفهوم الدولة حسب النظرة الأوروبية التي تنظر إلى الدولة انطلاقا من التصورات التي ظهرت بالبيئة الغربية والتي ترى في الدولة "بناء عضوي يرتبط ارتباطا وثيقا بكيان المجتمع وطبيعة المحكومين وأفكارهم مما يتطلب تفاعلا مستمرا بين الحاكمين والمحكومين"، وهذا ما لم يعرفه العالم الإسلامي سابقا. وهو توجه يرتبط في جزء منه بميول يسارية عندما يحاول إخضاع الكيان الجزائري في الفترة الحديثة لمواصفات الأمة حسب المفهوم الماركسي، مستخلصا أنها في طريق التشكل والتكوين بفعل الاستعمار الفرنسي وليس نتيجة للوجود العثماني (سعيدوني، مسألة السيادة الجزائرية في العهد العثماني محاولة لتقييم الحكم العثماني للجزائر، 03 مارس 1998).

ويذهب سعد الله أبعد من هذا، فحسبه وخلال الفترة 1516م-1830م ظهرت إلى الوجود دولة جزائرية تقوم على الوحدة الجغرافية والسياسية والاقتصادية للبلاد، بالإضافة إلى الوحدة الفكرية والروحية التي قامت منذ الفتح الإسلامي. كما كانت الدولة مؤيدة من طرف أغلب سكان الجزائر ومعززة بجيش بري وأسطول بحري وذات علم و"برلمان" (ديوان) ونقد وعاصمة. وكان لها تقاليد العرفية والدبلوماسية حسب القانون الدولي المعمول به آنذاك. ولم تكن هذه الدولة تمثل مصلحة دولة أجنبية، كما يراها أصحاب النظرية الاستعمارية، وما كانت علاقتها مع السلطنة العثمانية لا سياسية ولا قومية وإنما كانت روحية فقط (أ.قا، 1978، صفحة 64). وأكثر من هذا يرى أن هذه



الدولة كانت تعمل لمصلحة الجزائريين، فقد أخذت على عاتقها الدفاع عن تراثهم الوطني و"معتقداتهم" ونظمهم السياسية. كما عقدت الصفقات والمعاهدات الدولية باسمهم، وسنت القوانين والتشريعات "بإرادتهم". ذلك أن هذه الدولة كانت في الحقيقة موجودة باسمهم. وإذن فقد كانت جزائرية بكل معنى الكلمة، على الأقل في لغة العصر الذي كانت فيه. وقد امتازت الجزائر بأنها كانت محكومة بنظام "برلماني" (كذا) كان يحتوي على بذور صالحة "لديمقراطية" (كذا). فالدايات كانوا يتولون الحكم بطريقة الانتخاب لا الوراثة (أ.قا، 1978، صفحة 65). وهو رأي يستعمل مصطلحات لاحقة على فترة سابقة لظهورها الفعلي.

2-7- السيرورة نحو الوطن الجزائري:

إن طبيعة السكان الاستقلالية، والثورات الداخلية، ثم الخطر الإسباني في غرب المتوسط، كل هذه العوامل جعلت الجزائر في وضع خاص داخل الدولة العثمانية. فهي من جهة مستقلة أو تحاول أن تكون مستقلة عن إسطنبول، وهي من جهة أخرى تحاول أن تبقى على الحد الأدنى من الصلات الإسلامية، وإن كانت رمزية، مع الخلافة (أبو القاسم، 1998، صفحة 146). كما أن النزاع المتمكن من النظام الإقطاعي حال دون اكتمال نشأة وطن حقيقي، فقسمت البلاد (مناطق خاضعة وأخرى مستقلة عن الحكم المركزي) وأثيرت الفرق ضد بعضها البعض، وإن كانوا جميعا يتعلقون بخدمة الأرض حيث يقيمون، ولهم بعض الفوارق في اللغة والثقافة والمنزلة الاجتماعية، ويملكون تيسير الوحدة بالوعي بالانتساب المشترك إلى الإسلام وإرادة الدفاع عن الموطن ضد النصارى، وستكون سنة 1830م عبارة عن "نقطة الانطلاق للوجهة المتوخاة لبناء الوطن الجزائري" (برنيان، نوثي، و لاكوست، 1984، صفحة 170). وهذا الرأي، وإن كان متطرفا، ففيه بعضا من الصحة، لأن الدلائل كانت تشير إلى أن الجزائريين كانوا سيثورون لا محالة ثورة وطنية متحدة ضد الحكم العثماني لولا تدخل الاستعمار سنة 1830م (أبو القاسم، 1998، صفحة 18).

كما أن بفضل التحالف الإرادي بين الجزائريين والخلافة الإسلامية توحدت الجزائر جغرافيا وسياسيا وعسكريا بعد أن كانت موحدة روحيا وفكريا تحت عدة عائلات محلية. وقد أدى الشعور بالخطر والحروب ضد العدو المشترك إلى ظهور



"الضمير الوطني" الجزائري الذي اكتسب صلابة على مر السنين. كما أن الجزائر لم تعد منذ أوائل القرن 18م، بعد ظهور المسألة الشرقية وضعف الخلافة العثمانية، في حاجة لهذا التحالف. ذلك أنها أخذت شيئا فشيئا تبني أسطولها وتحصن سواحلها وتنظم اقتصادها وثبتت كيائها السياسي وعلاقاتها الدبلوماسية. ورغم هذا فقد أبقت على علاقتها الروحية بالخلافة والفكرية بالوطن العربي (أ.ق، 1978، صفحة 62).

كما تعززت القيادات المحلية في القرن 18م، وذلك بتغيير ميزان القوى داخل الديوان؛ لقد أصبح النفوذ الحقيقي بيد الأشخاص الذين كانوا باتصال دائم مع الداخل؛ كأغا العرب قائد الجنود غير العثمانيين، وخوجة الخيل المكلف باستخلاص الأعشار عينا، وبالتالي التموين على مستوى القطر (العروي، 2009، صفحة 486 و487).

كما أن قطع العلاقات التجارية التقليدية بين الجزائر وفرنسا بعد استقرار النظام الإمبراطوري لنابليون بونابرت (1769-1831م)، وتعويض هذا الطرف بالطرف البريطاني تبع ذلك التنافس بين الدولتين الرأسماليتين، بعد اتفاقيات سنة 1815م، من الأسباب التي خلقت الفوضى في التجارة الخارجية للجزائر وحرمت اقتصادها من الأسواق العادية، وهو ما سمح بالتدهور الاقتصادي ونتج عن ذلك الضغط في ميدان الضرائب، فلحق ذلك الضرر بالسكان المشتمين تحت حكم الدايات، وهو ما دفع إلى تعدد النزاعات الداخلية، وما تبع ذلك من مظاهر الضعف في الحكم وبروز طموحات الدول الرأسمالية عيانا، والتي فرضت شروطا قاسية على الإيالة، إلى أن تبلور الخلاف الذي نشب مع الحكومة الفرنسية ثم الحصار الذي دام ثلاث سنوات لإضعاف الإيالة واقتصاد البلاد. لهذا لم يبلغ الحكم مستوى يؤهله إلى خلق تنظيم وطني متكامل. وكانت ثروة الحكومة التي كانت جليلة ملموسة ولها من الموارد ما يدعمها عند نزول القوات الأجنبية بسيدي فرج، أوضحت الطموحات الأجنبية على الجزائر (برنيان، نوشي، و لاكوست، 1984، صفحة 171).

لهذا لم يكن المجتمع الجزائري قد وصل إلى المرحلة الوطنية، ولكنه بالروابط الموحدة دينيا وسياسيا وخلقيا ولغويا قد وصل لمرحلة المجتمع الواعي المتماسك والمتجاوب. إضافة للعادات والتقاليد المبنية بدورها على التشريع الإسلامي كعامل وحدة



قوية في المجتمع؛ فأحكام القضاة ومجالس الفتيا وكتابات الأدباء خلال الفترة الحديثة يؤكد وجود ذوق عام وقيم مشتركة وأحكام ومقاييس أخلاقية وروحية يستند إليها الناس في حياتهم اليومية ما يدل على وجود المجتمع الجزائري الموحد (أبو القاسم، 1998، صفحة 153).

-خاتمة:

يمكن القول في نهاية هذه الورقة العلمية أن الكيان الجزائري لم يأخذ شكل الأمة الكاملة السيادة والدولة المطلقة الصلاحية خلال الفترة الحديثة، لكنه في نفس الوقت لم يكن كيانا مصطنعا مرتبطا بالخارج ولا خاضعا لأقلية أجنبية. لقد كان نتاج عصره وبيئته، كيانا سياسيا محليا ساهم في تعميق الإحساس بالانتماء والتمايز لدى فئات واسعة من سكان الريف والمدن. إن القول أن الجزائر لم تكن دولة بالمعنى الحديث للكلمة صحيح، لكنها كانت دولة لها خصوصيتها، وحكومة لها سياستها. ضف لهذا أن الدولة الوطنية لم تظهر فعليا إلا بعد الثورة الفرنسية، وإن كانت الفكرة ظهرت مع النهضة الأوروبية، ومنه خطأ إضفاء مصطلحات فترة معينة على فترة سابقة لها، ما يؤدي لغياب الموضوعية والحيادية في الدراسات والبحوث التاريخية لعدم احترامها لشروط الكتابة العلمية.

خلاصة القول أنه كان يمكن أن تتطور الجزائر لدولة وطنية بعد سنة 1830م، على اعتبار توفرها على شروط الدولة الوطنية في فجر نشأتها، لكن الاستعمار الفرنسي تسبب في تأخير بل تعطيل عملية البناء.

قائمة المراجع:

1. أحمد توفيق المدني. (1984). كتاب الجزائر. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
2. الشيخ أحمد الشريف الزهار. (1980). مذكرات نقيب أشرف الجزائر: 1168-1246هـ/1754-1830م، تحقيق: أحمد توفيق المدني. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
3. العزي سويم. (2009). دراسات في علم السياسة، مكتبة الجامعة. الأردن: مكتبة الجامعة-الشارقة وإثراء للنشر والتوزيع.

4. أمين أميرة. (بلا تاريخ). مفهوم كلمة الوطن لغة واصطلاحا في 5 سطور. تم الاسترداد من في موقع إد أرابيا: <https://www.edarabia.com/ar>
5. أندري برنيان، أندري نوشي، و إيف لاكوست. (1984). الجزائر بين الماضي والحاضر إطار نشأة الجزائر المعاصرة ومراحلها، تعريب: إسطنبولي رباح ومنصف عاشور وتفاحي مراد، تمهيد: جان دريش. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
6. خير الدين بروس. (2013). مذكرات، ترجمة وتعليق: محمد دراج. الجزائر: الأصالة للنشر والتوزيع.
7. رفاعة رافع الطهطاوي. (2017). مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداي سي أي سي.
8. سعد الله أ.قا. (1978). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
9. سعد الله أبو القاسم. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
10. عادل علي. (بلا تاريخ). ما هي الدولة القومية الحديثة. تم الاسترداد من في إضاءات: <https://www.ida2at.com/who-are-we>
11. عبد الحميد زوزو. (2010). المرجعيات التاريخية للدولة الجزائرية الحديثة (مؤسسات ومواثيق)، ضمن أعمال الدكتور عبد الحميد زوزو، المجلد 5. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
12. عبد الحميد زوزو. (2010). محطات في تاريخ الجزائر، ضمن أعمال الدكتور عبد الحميد زوزو، المجلد 7. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
13. عبد الرحمان بن خلدون. (2010). المقدمة، اعتنى به مصطفى شيخ مصطفى. بيروت: مؤسسة الرسالة ناشرون.
14. عبد الرحمان بن محمد الجيلالي. (2007). تاريخ الجزائر العام، الجزء 3: من 920هـ/1514م إلى 1246هـ/1830م. الجزائر: دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.
15. عبد الرزاق الجزائري ابن حمادوش. (1983). رحلة ابن حمادوش المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب وال الحال، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.



16. عبد الله العروبي. (2009). مجمل تاريخ المغرب، الطبعة 2 (مجتمعة). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
17. علاء الدين عبد الرزاق جنكو: (بلا تاريخ). المواطنة بين السياسة الشرعية والتحديات العصرية. تسمم الاسترداد من http://neelain.edu.sd/mmacpanel/includes/magazines/pdf/3_11_3.pdf
18. علي مولا. (2010). الموسوعة العربية الميسرة، مجلد 5. بيروت: المكتبة العصرية.
19. عمر حداد. (بلا تاريخ). الدولة الوطنية بين اللغو والمصطلح الصحيح. تم الاسترداد من <https://geiroom.net/archives/83110>
20. قاموس المعاني. (بلا تاريخ). تم الاسترداد من <https://www.almaany.com/ar/dict/ar>
21. "لسان العرب" وقاموس اللغة العربية المعاصرة و المعجم المحيط. (بلا تاريخ). تم الاسترداد من <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar>
22. مجد خضر. (بلا تاريخ). مفهوم السلطة. تم الاسترداد من في موضوع. كوم: <https://mawdoo3.com>
23. محمد الجزائري ابن ميمون. (1981). التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد ابن عبد الكريم. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
24. محمد العربي الزبيري. (1984). التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
25. محمد عابد الجابري. (بلا تاريخ). الوطنية والقومية والمواطنة: 1- الوطنية... والقومية. تم الاسترداد من على موقع منبر الدكتور محمد عابد الجابري: <http://www.aljabriabed.net/nation-citoyen1.htm>
26. مولود قاسم نايت بلقاسم. (1985). شخصية الجزائر الدولية وهبتها العالمية قبل 1830، جزء 1. قسنطينة: دار البعث للطباعة والنشر.
27. مؤمن سحنون. (بلا تاريخ). الدولة القومية الحديثة وكيف دخلت الأمة تحت سطوتها الاجتماعية. تاريخ الاسترداد 08 01 2020، من تبيان نصنع الوعي: <https://tipyan.com/the-modern-nation-state>



28. ناصر الدين سعيدوني. (03 مارس 1998). مسألة السيادة الجزائرية في العهد العثماني محاولة لتقييم الحكم العثماني للجزائر. بحث قدم في سمناز قسم التاريخ. الأردن: جامعة آل البيت.
29. ناصر الدين سعيدوني، و الشيخ المهدي بوعبدلي. (1984). الجزائر في التاريخ، الجزء 4: العهد العثماني. الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة- المؤسسة الوطنية للكتاب.
30. E.F Gautier. (1937). Le passé de l'Afrique du Nord Les siècles obscurs. Paris: Payot.
31. Ernest Watbled. (1873). Établissement de la domination turque en Algérie. Revue Africaine. 17 ،
32. F.M Denny. (2010). Umma من الاسترداد 11 08 2020، Encyclopédie de l'Islam: http://dx.doi.org/10.1163/9789004206106_eifo_COM_1291
33. Filippo Pananti. (1820). Relation d'un séjour à Alger contenant des observations, traduit de l'anglais. Paris: le Normand Imprimeur-Libraire.
34. Gilbert Meynier. (2001). Problématique historique de la nation algérienne. in NAQD: Revue d'Etude et de Critique Sociale Histoire et Politique) N.(15-14 °
35. Julien, C.-A. (1956).) Histoire de l'Afrique du Nord : Tunisie- Algérie- Maroc de la conquête arabe à 1830, 2ème édition revue et mise à jour par Roger Le Tourneau. Paris: Payot.
36. Lemnouar Merouch. (2001). Conjonctures intellectuelles et notions de groupe, in NAQD. Revue d'Etude et de Critique Sociale Histoire et Politique. (15-14)
37. M.Emerit M.Emerit1). er et 2ème trimestre 1949. (Les mémoires d'Ahmed bey dernier bey de Constantine", tome 93, A.Jourdin. Revue Africaine.
38. Pierre Dan. (1646). Histoire de Barbarie et de ses corsaires, seconde édition augmentée. Paris: Pierre Rocolet Imprimeur et Libraire Ordinaire du Roi.
39. Shaler William. (1830). Esquisse de l'état d'Alger, Présentation de Claude Bontems, Traduit de l'anglais par M.X. Bianchi. Paris: Librairie Ladvocat, Palais royal.



40. Thainville, D. (1927). : Mémoires sur Alger (1809), Publier par G.Esquer. Librairie Ancienne Honor Champion- Librairie de la Société de l'Histoire de France, G.G.A.
41. Wahl Maurice .(1903) .L'Algérie, 4ème édition, mise à jour par A.Bernard .Paris: A.Bernard Éditeur scientifique.
42. Zahir Ihaddaden .(2002) .Regard sur l'histoire de l'Algérie .Alger: les Éditions » At Turath.«